المقام خزان الحجاج

أ. الطيب رزقي

جامعة الإخوة منتوري– قسنطينة

ملخص:

للمقام أهمية كبيرة في نجاح العملية التواصلية الحجاجية، من حيث كونه عنصرا هاما في المنظومة اللغوية المتكونة من المتكلم والسامع والمقام والرسالة. ولذلك كان اهتمام اللغويين بالمقام كبيرا.

بالنسبة للغويين العرب انعكس هذا الاهتمام على تعدد في المسميات؛ فمراعاة المقام عندهم هو موافقة الكلام لمقتضى الحال. وهو لب البلاغة العربية. وتراكم المنجز العربي بعد ذلك حول المقام من البلاغيين واللغويين القدامى والمفسرين والأصوليين. كما كان للغويين العرب المحدثين إسهاماتهم المعتبرة في ذلك من حيث التأكيد على أهمية اعتبار المقام في الخطاب ذا الهدف التأثيري الإقناعي. أو إعادة تصنيف مقامات الخطابة العربية.

أما بالنسبة للغرب فأبرز التفاتة إلى فكرة المقام كانت من التداولية وهي علم استعمال اللغة في المقام. وقد كان للفكرة حضورا في كتاب الخطابة لأرسطو، وانتقل الاهتمام إلى أهم النظريات الحجاجية في العصر الحديث بما أكدته نظرية البلاغة الجديدة، ونظرية الحجاج في اللغة. فمراعاة المقام يشحن الخطاب بطاقة حجاجية يحقق بسبب ذلك التأثير والإقناع.

إن ما جاء به الدرس التداولي حول مركزية فكرة (المقام)، وما أكده الحجاج أيضا. جاء ليغطي معظم المساحة التي كان يغطيها الدرس البلاغي العربي تحت فكرة (مقتضى الحال) أو (المقام).

وفي سياق ما تم بيانه خلص المقال إلى تأكيد أهمية المقام في الصناعة الحجاجية، فالمقام هو الخزان الحجاجي الذي يعتمد عليه في الفهم والإفهام، في الاقتناع والإقناع

Abstract

The context has a great importance in the success of the communication process. From being an important element in the linguistic system of the transmitter, the receiver, the context and the message. Therefore, the linguists had a big interest in it.

For Arab linguists, this interest was reflected in a multiplicity of names; for them the consideration of context is the consent of the speech as appropriate. This is the heart of Arabic rhetoric.Later,the Arab success in the context has accumulated... Modern Arab linguists have also contributed by emphasizing the importance of considering context in discourse as the goal of persuasive effect. Or reclassification of the contexts of Arab rhetoric.

As for the West, the most important approach to the concept of context was pragmatism, which is the science of using language in context. The idea had a presence in Aristotle's discourse book,then the attention went to the most important theories of argumentation in the modern era, as confirmed by the theory of new rhetoric, and the theory of argumentation in language.so the consideration of context increases the discourse with an energie of convincing which achieve through this influence and persuasion.

What a pragmatism has brought about the centrality of the concept of "context" as confirmed by the argumentation. Has come to cover most of the area covered by Arabic rhetoric under the idea of (the case) or (Maqam).

In the context of what has been said, the article concludes by emphasizing the importance of the context in the argumentation, Context is an inexhaustible reservoir of arguments on which to base for understanding, and for consensus and the persuasion.

المقام عنصر هام من منظومة لغوية متكاملة هي المتكلم والسامع والمقام والرسالة، إن روعيت جميعها حسن الكلام ونجحت العملية التواصلية والحجاجية. وقد اهتم البلاغيون العرب بالمقام تحت مسميات شتى دلت كلها على أهمية الإنجاز وعظمته، من هذه المسميات" موافقة الكلام لمقتضى الحال"[1]، و"لكل مقام مقال"، و"لكل كلمة مع صاحبتها مقام". وقد وصف تمام حسان وضع البلاغيين العرب للعبارتين الأخيرتين بأنهم: " وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات لا في العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على حد سواء "[2]

والمقولتان تنسجمان مع مبدأ هام من مبادئ المدارس اللسانية المعاصرة، وهو مبدأ يضبط العلاقة بين الخطاب وما يحيط به من ظروف وسياقات مختلفة. وكمثال على ذلك حديث فاين دايك (Van Diyk) عن مهام التداولية إذ جعل مراعاة الموقف شرط أساس لنجاح الخطاب وفي ذلك يقول: "فإن المهمة الثانية للتداولية يجب أن "تُنزل" هذه الأفعال في موقف معين، وأن تُصيغ الشروط التي تنص على أي العبارات تكون ناجحة في أي موقف من المواقف. أعني أننا نحتاج إلى وصف مجرد لهذا (الموقف لفعل كلامي متداخل الإنجاز). واللفظ التقني الذي نستخدمه في مثل هذا الموقف هو مصطلح (السياق)" [3].

وبناء على هذا الانسجام المعرفي بين الدرس البلاغي العربي والدرس اللساني الحديث، يقوم هذا المقال على إشكالية مركزية وهي: ما منزلة المقام في الحجاج؟ وقبل ذلك؛ ما منزلته في التراث اللغوي العربي؟ وما منزلته في الدرس التداولي الحديث؟ وهل يمكن اعتبار حديث العلماء العرب القدامى حول المقام هو

حديث يقع في صميم اشتغال التداولية اليوم؟ وهل يمكن اعتبار العرب – بذلك – روادا؟

المقام في الثقافة العربية:

عرف أحمد مطلوب "مقتضى الحال" في معجم مصطلحات النقد العربي القديم تعريفا دقيقا فقال: "هو أن يكون الكلام مطابقا للحالة التي يتحدث عنها، ومناسبا للموقف الذي يتحدث فيه، وقد اهتم العرب بذلك منذ القديم، فقال الحطيئة:

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَدَاكَ الْمَلِيكُ ... فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالا

وتحدث عنه البلاغيون وقالوا: إن خير الكلام ما كان مطابقا لمقتضى الحال، وقالوا: إن لكل مقام مقالا ..." (4) كما استشهد بكلام الخليل، والجاحظ، والعسكري، والسكاكي ...وكل أقوالهم تجمع على مكانة المقام في البلاغة العربية وتؤكد أنه لبُّها وجوهرها.

ولعل المتفق عليه لدى الدارسين أن أول ما وصلنا عن فكرة المقام كانت صحيفة بشر بن المعتمر إلى إبراهيم بن جَبَلة بن مَخرمة السُكُوني الخطيب، والوارد نصها في البيان والتبيين للجاحظ، ومما جاء في الصحيفة قوله: " فكن في ثلاث منازل، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال. وكذلك اللفظ العامي والخاصي. فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تُفهم العامة معاني الخاصة

وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام "(5).

فمحور العملية التداولية في الخطاب لدى بشر هو مقام المتلقي، ونلمح في استراتيجية التعامل معه النزعة الطبقية حيث يقسمه إلى خاص وعام، ومن الضروري مراعاة هذا التقسيم في اللفظ والمعنى، أو كما قال "ما يجب لكل مقام من المقال". وهي نزعة شاملة في درسنا البلاغي العربي، فعلى المتكلم مراعاة ذلك "وألا يستعمل ألفاظ الخاصة في مخاطبة العامة ولا كلام الملوك مع السوقة، بل يعطي كل قوم من القول بمقدارهم ويزنهم بوزنهم، فقد قيل: (لكل مقام مقال) "(6).

وإننا نلمس هذه النزعة الطبقية في حديث بلاغيينا عن مقامات الإيجاز والإطناب، وهي التي تحدد أي النمطين أنسب لهذا المقام أو ذاك "فإن الإيجاز ينبغي أن يستعمل في مخاطبة الخاصة وذوي الأفهام الثاقبة الذين يجتزئون بيسر القول عن كثيره وبجمله عن تفسيره، وفي المواعظ والسنن والوصايا التي يراد حفظها ونقلها ... وأما الإطالة: ففي مخاطبة العوام ومن ليس من ذوي الأفهام ومن لا يكتفي من القول بيسره، ولا ينفتق ذهنه إلا بتكريره وإيضاح تفسيره"(7).

ولهذا السبب كان المقام الوسيلة المثلى للوقوف على خصائص ومميزات الأجناس الأدبية وأنواع الخطاب، وكذا التمييز بينها من ناحية أو المفاضلة بينها من ناحية أخرى. فجوهر عملية تداول الخطاب هو مراعاة المقام وحال المخاطبين، أو قل هو حلقة وسطى بين الغرض من الخطاب وأداته، ليتوصل المتكلم للتأثير في المتلقي. وقد رأينا أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) يشترط لكي يحقق الخطاب المنفعة شعرا كان أو خطبة شروطا منها؛ مراعاة حال المخاطبين وتجنب مصلحات علم الكلام المعقدة، وهو يقول في هذا الشأن:

"واعلم أن المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال، فإذا كنت متكلما أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض ما تصلح له الخطب، أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد فتخط ألفاظ المتكلمين مثل الجسم والعرض والكون والتأليف والجوهر فإن ذلك هجنة "(8).

كما رأينا ابن رشيق (ت 456هـ) حين يتحدث عن الشعر يبرز تميز مقام المخاطب فيه عن بقية الأجناس الأدبية الأخرى حيث يقول: " ومن فضل الشعر أن الشاعر يخاطب الملك باسمه وينسبه إلى أمه، ويخاطبه بالكاف كما يخاطب أقل السوقة، فلا ينكر ذلك عليه" (9). فالمقام الخطابي إذا غير المقام الشعري، وذلك لتميزه بالتلقي المباشر للخطاب من المتلقي، فهو مطالب بفهمه في حينه لأنه يستهلك استهلاكا آنيا، بل وقد يكون المتلقي من العوام. بينما الخطاب الشعري غير موجه للعوام، ويتساوى فيه الناس جميعا دونما استثناء.

وقد حصر القدامى المقامات وحددوا المقتضيات تحت قاعدة: (إذا كان المقام كذا فالمقتضى كذا) (10)، واعتبروا المقام حالة ثابتة لا تتغير، وما على المخاطب إلا اعتمادها في خطابه. وقد خالفهم في ذلك تمام حسان ورآه متغيرا بتغير الزمان والمكان. فقال: " إن مجموع الأشخاص المشاركين في المقال إيجابا وسلبا ثم العلاقات الاجتماعية والظروف المختلفة في نطاق الزمان والمكان هو ما أسميه "المقام" وهو بهذا المعنى يختلف بعض الاختلاف عن فهم الأولين الذين رأوه حالا ثابتة state ثم جعلوا البلاغة مراعاة مقتضى الحال" (11).

وهذا الثبات ولا شك – والذي رآه القدامى - راجع إلى تحكم الغاية التعليمية للبلاغة في تلك المرحلة، فقاموا بحصر المقام وضبط مقتضياته في قواعد معيارية صارمة. إن هذا الضبط وهذا الثبات نلمسه في درسنا البلاغي القديم مثل حديثهم في أحوال الحذف والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، أو حالات

الإسناد الخبري الابتدائي أو الطلبي أو الإنكاري، وكل ذلك في ضوء تصنيف البلاغة العربية للمتلقي (السامع) أثناء تلقي الخبر إلى ثلاثة أصناف هي: متلقي خالي الذهن، ومتلقي شاك متردد، ومتلقي جاحد منكر...(12) والذي نجم عنه ما اصطلح على تسميته ب (أضرب الخبر).

وقد وقف أئمة بلاغتنا العربية بالتحليل الموسع للبنية اللغوية ومنهج مراعاة المقام، ومثال ذلك قول السكاكي (ت 626هـ): " أما الاعتبار الراجع إلى الحكم في التركيب من حيث هو حكم، من غير التعرض لكونه لغويا أو عقليا فإن ذلك وظيفة بيانية، فكون التركيب تارة غير مكرر ومجردا من لام الابتداء وإن المشبهة والقسم ولامه ونوني التوكيد، كنحو عرفت عرفت، ولزيد عارف، وإن زيدا عارف، وإن زيدا لعارف، ووالله لقد عرفت أو لأعرفن في الإثبات، وفي النفي كون التركيب غير مكرر ومقصورا على كلمة النفي مرة، كنحو ليس زيد منطلقا وما زيد منطلقا، ولا رجل عندي. ومرة مكرران كنحو ليس زيد منطلقا ليس زيد منطلقا، وغير مقصور على كلمة النفي، كنحو ليس زيد بمنطلق، وما إن يقوم زيد، ووالله ما زيد قائما، فهذه ترجع إلى نفس الإسناد الخبري " (13). فكل هذا مراعاة للمقام، أي حال السامع أثناء تلقيه للخطاب.

احتل "المقام" في الدرس البلاغي العربي إذا منزلة كبيرة، ومما يدل على ذلك أيضا أحد فروع علوم البلاغة الثلاث وهو "علم المعاني "، وفي تعريف بلاغيينا له هو العلم الذي "يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال " (14) فهو قد تأسس وفق منظور فكرة المقام. بل إن علوم البلاغة كلها تأسست للغرض ذاته. ففي تعريف السكاكي للمعاني والبيان – وهما يمثلان البلاغة عنده بينما البديع عنده يعد ذيلا لهما – يقول: "علم المعاني والبيان هو: معرفة خواص

تراكيب الكلام، ومعرفة صياغات المعاني، ليتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقها" (15).

إن مراعاة المقام في البلاغة العربية هي الغاية والمقصد، وهي لبُّها وجوهرها كما سبقت الإشارة، فلا تمر مناسبة من غير التنبيه إلى ذلك، لإنه يعتمد على وضع الكلمة المناسبة في المكان المناسب، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم وفهومهم. ولكي تتَّضح هذه الدلالة نأتي يالمثال الآتي وهو قول الأصمعي: "كنت أشهد أبا عمرو بن العلاء وخلفًا الأحمر يأتيان بشارًا، ويسلِّمان عليه بغاية التعظيم، ثم يقولان: يا أبا معاذ، ما أحدثت اليوم؟ فيخبرهما وينشدهما، ويسألانه ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي الظهر، ثم ينصرفان عنه، فأتياه يومًا فقالا له: ما هذه القصيدة التي أحدثتها في سلم بن قتيبة؟ فقال: هي التي بلغتكما، قالا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب، فقال: نعم، بلغني أن سلمًا يتباصَر بالغريب؛ فأحببت أن أردَّ عليه بما لا يعرفه، قالا: فأنشِدْنَاها، فأنشدهما:

بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الهَجِيرِ   إِنَّ ذاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

حتى فرغ منها، فقال له خلفٌ: لو قلت: يا أبا معاذ مكان (إن ذاك النجاح في التبكير)، (بكِّرَا فالنجاح في التبكير) كان أحسن. فقال بشار بنَيتُها أعرابيةً وحشيةً، فقلت: إن ذاك النجاح في التبكير، كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: بكِّرا فالنجاح في التبكير، لكان هذا من كلام المولَّدين، ولا يشبه ذاك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة، فقام خلف وقبَّل " (16).

فالمقام الذي اقتضى التوكيد في بيت بشار يترجم حال المتكلم (بشار) وليست حال السامع، وهي حال تُوصَف بالانتماء اللغوي والأدبي، فبشار يودُّ أن يكون منتمِيًا إلى مدرسة الأعراب الخُلَّص لا المولَّدين، وهو انتماء اقتضى أن يقول: "إن ذاك النجاح في التبكير"، لا "بكِّرَا فالنجاح في التبكير".

إن بشارًا عرف من أسرار اللغة وفنون صوغها ما جعله يفضِّل عبارة على عبارة لأنها أقرب إلى المعنى الذي أراد، ليكون كلامه من كلام الأعراب الخُلَّص (أعرابية وحشية) لا من كلام المولَّدين. ويعد هذا الالتزام من بشار التزاما بما ورد في الدرس النقدي العربي الذي أكد على ضرورة اعتبار المقام في الخطاب الشعري. ومن ذلك ما ذكره ابن طباطبا (ت322هـ) حيث يقول: "الشاعر إذا أسَّس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي الفصيح لم يخلط به الحضري المولَّد، وإذا أتى بلفظة غريبة أتبعها أخواتها، وكذلك إذا سهل ألفاظه لم يخلط بها الألفاظ الوحشية النافرة... كما يتوقَّى أن يرفع العامة إلى درجات الملوك ويعدُّ لكلِّ معنًى ما يليق به، ولكل طبقة ما يُشاكِلها؛ حتى تكون الإفادة من قوله في وضعه الكلام مواضعه أكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسجه وإبداع نظمه " (17).

وبناء على ما سبق فإننا نقول؛ إن مجرد الوقوف على دلالة الخطاب لا يتم فحسب بالطرق التحليلية للسانيات على المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية. وإنما بالاعتماد بدرجة كبيرة على عنصر المقام وهو ما تؤكده الدراسات اللسانية المعاصرة. يقول تمام حسان: "حين نفرغ من تحليل الوظائف على مستوى الصوتيات والصرف والنحو، ومن تحليل العلاقات العرفية بين المفردات ومعانيها على مستوى المعجم لا نستطيع أن ندعي أننا وصلنا إلى فهم المعنى الدلالي لأن الوصول إلى هذا المعنى يتطلب فوق كل ما تقدم ملاحظة العنصر الاجتماعي الذي هو المقام"(18). وإذا كان المقام على مستوى الدلالة مهم، فهو من ثم أهم وأوكد عندما تكون غاية الخطاب لا مجرد إيصال المعنى، وإنما الإقناع والتأثير الذي هو غاية الخطاب الحجاجي.

إن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وهو الخليفة العادل – لم يشأ أن يحكم في الحطيئة لما هجا الزبرقان بن بدر حتى يتبين المعاني من المقام وسأل

حسان ولبيدا –رضي الله عنهما– فقالا إنه هجاء له، فأمر به فأرمي في بئر ثم ألقى عليه شيئا (19) .

وفي ذلك قال الحطيئة:

دَعِ المِكارِمَ لا تَرحَل لِبُغيَتِها وَاقعُد فَإِنَّكَ أَنتَ الطاعِمُ الكاسي

وقد استطاع ابو بكر الصديق أن يخمد فتنتين من أخطر مقامات الفتنة في التاريخ الإسلامي بحسن استشهاده وتوظيفه الشاهد المناسب في المقام المناسب وذلك عند وفاة النبي ﷺ، وفي اجتماع السقيفة (20).

ونقف في ثقافتنا العربية مع المفسرين وقد كانوا من الذين استعانوا بالمقام في تعاملهم مع الخطاب القرآني، حرصا منهم على معرفة الدلالة الصحيحة والدقيقة. بل ويجعلون من المقام عنصرا أصيلا في تعريفاتهم لعلم التفسير، وهذا السيوطي (ت911هـ) في تعريفه للتفسير يقول: " التفسير كشف معاني القرآن، وبيان المراد منه، سواء أكانت معاني لغوية أو شرعية بالوضع أو بقرائن الأحوال ومعونة المقام" (21). وقد ذكر العلماء أن قرائن الأحوال والمقام تتمثل أساسا بالنسبة للقرآن الكريم في أسباب النزول، فكثير من آيي القرآن الكريم ارتبطت بمواقف ومقامات أثناء نزولها، ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب(22) .

ومن قبيل اعتناء المفسرين بالمقام وحال المخاطب اهتمامهم بالمكي والمدني، وما المكي والمدني إلا إشارة إلى أماكن نزول القرآن وزمانه باعتبار ما قبل الهجرة وما بعدها (23). فحال المسلمين في مكة وحال أهل مكة ليس هو حال المسلمين بالمدينة ولا هو حال أهل المدينة عموما. ولذلك نجد الخطاب القرآني يختلف بين المقامين، فاحتاج المفسرون إلى الوقوف على هذه المقامات لتحديد الدلالات.

وأهمية معرفة مقامات الكلام في الثقافة العربية تؤكده أيضا دراسات الأصوليين، من حيث تأكيدهم ضرورة إلمام من يتصدى لاستخراج الأحكام من القرآن والسنة بشروط عديدة ومن هذه الشروط ما يتعلق بالمقام، فينبغي له ألا يغفل عن بعضه في تفسير بعضه، وألا يغفل عن السنة في تفسيره، وأن يعرف أسباب نزول الآيات، وأن يعرف النظم الاجتماعية عند العرب (24).

والآمدي(ت631هـ) عندما أراد أن يقف على أقسام الدلالة في أصول الفقه، جعلها في قسمين: دلالة لفظية ودلالة غير لفظية والتي سماها (دلالة الالتزام)، والتي لا يخرج مدلولها عن مفهوم المقام. وفي ذلك يقول: "وأما غير اللفظية، فهي دلالة الالتزام، وهي أن يكون اللفظ له معنى، وذلك المعنى له لازم من خارج، فعند فهم مدلول اللفظ من اللفظ، ينتقل الذهن من مدلول اللفظ إلى لازمه، ولو قدر عدم هذا الانتقال الذهني، لما كان ذلك اللازم مفهوما" (25).

فقد كان للأصوليين اهتمام خاص بالمقام، وهم يؤكدون على أهميته في تحديد الدلالات في النصوص الشرعية، وكشفوا عن كثير من مكوناته. فليس للبنية اللغوية وحدها فضل في معرفة مراد المتكلم، ولذلك يذهب ابن القيم (ت751هـ) في الحديث عن طريقة فهم دلالات القرآن إلى أن "الألفاظ لم تقصد لذواتها وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم، فإن ظهر مراده ووضح بأي طريق كان عمل بمقتضاه، سواء كان بإشارة، أو كتابة، أو بإماءة، أو دلالة عقلية، أو قرينة حالية، أو عادة له مطردة، لا يخل بها، أو من مقتضى كماله وكمال أسمائه وصفاته، وأنه يمتنع منه إرادة ما هو معلوم الفساد، وترك إرادة ما هو متيقن مصلحته، وأنه يستدل على إرادته للنظير بإرادة نظيره..."(26). فالقرينة الحالية أحد الوسائل التواصلية التي تقف عندها كثير من الدلالات .

ولأهمية المقام في الخطاب اعتمده بعض الباحثين المحدثين معيارا أساسيا في تصنيف الخطابة، ولعل العمل الذي قدمه محمد العمري في كتابه "في بلاغة الخطاب الإقناعي" (27) هو عمل إبداعي في هذا الصدد، وإن كان قد اعتمد أساسا لهذا التصنيف تصنيف القدامى للخطابة حسب موضوعاتها، وقد قام بتصنيف ثاني متفرع عن التصنيف السابق، فكان تصنيفه ذلك وفق الشكل الآتي:

مقامات الخطابة العربية في القرن الأول الهجري

مقامات الخطابة الدينية	1- مقام التعليم (المتلقي خالي الذهن)
	2 - مقام الوعظ (المتلقي متناسي غافل)
	3 - مقام المناظرات المذهبية (المتلقي مخالف جاحد)
مقامات الخطابة السياسية	1 - الحوار بين الأنداد (نصح، مشاورات، مناظرات)
	2 - الحوار من غالب لمغلوب (مغلوب مشاق،مهزوم في حرب)
	3 – من رئيس لمرؤوسه (مرؤوس مسالم، مرؤوس مشاق)
	4 – من مرؤوس لرئيس (مخالف أو مذنب،موال، موتور أو مظلوم)
مقامات الخطابة الاجتماعية وشؤون الحياة	1 – في التنظيم الاجتماعي (المخاصمات القضائية،خطب الإملاك،خطب الصلح)
	2 – في المشاركة الوجدانية

فتصنيف القدامى للخطابة اقتصر على ثلاث مقامات عامة وهي: مقام الدين، ومقام السياسة، ومقام الاجتماع وشؤون الحياة. ولكن محمد العمري – وبناء على اختلاف المقامات ومقتضيات الأحوال داخل كل مقام استقراء للخطابة العربية – جعل لكل مقام مقامات متفرعة عنه، فنتج لدينا تسعة مقامات جديدة تفرعت عن المقامات الأصلية كما هو مبين في الجدول السابق.

المقام في الثقافة الغربية:

أما في الغرب وبعد الفتوحات العلمية للسانيات اليوم، برزت التداولية وصارت تدل على علم استعمال اللغة في المقام (28)، وقد أشار إلى هذه العلاقة بين التداولية وفكرة المقام أو مقتضى الحال صلاح فضل عندما عرفها بأنها: "العلم الذي يعنى بالعلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منظم، مما يطلق عليه سياق النص. ويأتي مفهوم التداولية هذا ليعطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة "مقتضى الحال" وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية "لكل مقام مقال"(29).

وقد اعتبر تمام حسان العرب متقدمين على الغرب في اكتشاف فكرة المقام بألف سنة، وأن الغرب لم يعرف الفكرة إلا في العصر الحديث فقال: "ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة "المقام" متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم لأن الاعتراف بفكرتي "المقام" و"المقال" باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة" (30).

إن غياب مصطلح المقام في الفكر اللغوي الغربي بل وفي كتاب الخطابة لأرسطو ليس دليلا على غياب فكرة المقام، فالمقام عنصر جوهري في الخطاب وهو لا يمكن أن يستغني عنه أبدا. وما اعتبره تمام حسان أنه اكتشاف عربي غير صحيح. فقد وجدنا للفكرة حضورا عند اليونان في كتاب الخطابة لأرسطو، ويتجلى في حديثه عن التصديقات والأدلة والحجج والبراهين الخطابية، يقول أرسطو: " والأدلة التي تقدم بواسطة القول الخطابي هي ثلاثة أنواع: أولها يقوم في طباع الخطيب ومزاجه، ويقوم ثانيها في الاستعدادات التي يوضع عليها المستمع، وتتعلق ثالثتها بالخطاب ذاته، لأن الخطاب إما يبرهن، أو يبدوا عليه أنه يبرهن"(31).

إن البراهين الذاتية النفسية لتي ذكرها أرسطو والمتعلقة بأخلاق الخطيب وشخصيته، وبأحوال المستمعين حسب الأعمار والطبقات؛ هو عين ما يسميه الدرس البلاغي العربي ب "مراعاة المقام". وهو ما أشار إليه محمد العمري في كتابه "في بلاغة الخطاب الإقناعي"(32)، حيث استطاع أن يقف على أسس بلاغة الخطاب الإقناعي وكان منها الحجج والبراهين الخطابية.

كما أشار الدكتور صلاح فضل إلى عثوره على سابقة لفكرة المقام عند شيشيرون (Ciceron) الروماني (106ق م – 43ق م) في قوله: "إن الرجل البليغ يجب أن يقدم قبل كل شيء البراهين على حكمته، ويتكيف مع مختلف الظروف والشخصيات. أعتقد بالفعل أنه لا يجب أن يتكلم دائما بنفس الطريقة أمام الجميع، ولا ضد كل شيء، ولا لصالح أي شيء، عليه إذن لكي يكون بليغا أن يكون جديرا بأن يجعل لكل مقام مقالا لغويا ملائما له"(33).

كل هذا يجعلنا نذهب إلى القول بأصالة فكرة المقام في آليات الخطاب في الفكر اللغوي الإنساني ممارسة وتنظيرا، وليس العرب وحدهم من كان لهم فضل

السبق، بل ولا يخلو الأمر من علاقة تأثر وتأثير، وقد أشار محمد العمري إلى فرضية تأثر بلاغيينا العرب بكتاب "الخطابة" لأرسطو في البلاغة عموما، وفي قضية مراعاة المقام والحال خاصة(34) .

المقام في الصناعة الحجاجية:

و إذا ما أردنا أن نتبين معالم المقام في أهم النظريات الحجاجية، فأول ما يشد انتباهنا نظرية البلاغة الجديدة لبيرلمان وتتيكا (chaim Perlman، Olbrecths – Tytica)، ففي دراستهما للحجاج حددا تقنيات جديدة خاصة بعلاقة المتكلمين بالمخاطبين وبالمقام (35)، حيث إن المتكلم في الحجاج هو المسؤول عن تناسق النص المقدم إلى المخاطب، يسعى إلى الإقناع ولا يتم ذلك إلا من خلال التحكم التام للمتكلم في الآليات الحجاجية اتجاه متلقيه. وفي الوقت نفسه تجعل دور المتلقي إيجابي، يتلقى ويفكر ويرد ويناقش. لينتقل بذلك المتلقي من موقع التلقي إلى موقع الإرسال، فيتبادلان بذلك الأدوار، ولكن على أساس من الموضوعية التي لا تجعل الآخر يقف موقف الخصم العنيد المتعنت، وإنما يقف موقف الشريك المتعاون المتفاهم.

فالمتكلم مطالب بامتلاك ثقافة واسعة معتمدا على الموروث الثقافي الحضاري وهو مخزونه للحجاج، وعليه بالتقليل من الاعتماد على الآليات اللغوية والبلاغية، كما أنه مطالب بالفطنة والكياسة، حيث يستطيع توقع كل القيم والتصورات الداحضة لطرحه، ليقوم بتحويلها وجعلها جزء من خطته الحجاجية، بإخراجها من مقامها الأصلي إلى مقام جديد يعمل لصالحه.

فكل هذا هو من صميم مراعاة المقام في الخطاب الحجاجي، أضف إلى ذلك قاعدة هامة تقوم عليها نظريتهما وهي المقدمات Des premisses

(36) التي تعتمدها النظرية باعتبارها مسلمات لدى الجمهور، وهي أيضا من صميم فكرة المقام، وهي نقطة انطلاق الاستدلال الحجاجي عندهما.

هذه مقدمات لا يتم الحجاج إلا باعتمادها لأنها عبارة عن مسلمات لدى الجمهور لا يمكن التأثير فيه إلا بالانطلاق منها، فهي نقطة انطلاق الاستدلال. وهي تعتمد الحس المشترك Le sens commun الذي لمجموعة لسانية ليتم الموافقة عليها مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذه الموافقات تختلف باختلاف المجالات، بل توجد إلى جانب الموافقات العامة موافقات خاصة بأهل اختصاصات معينة، وموافقات بمحادثة معينة، كما يمكن بناء مقدمات جديدة أثناء الكلام نفسه، أو اعتماد منظومة الطرف الآخر الحجاجية كمقدمات خاصة حين تتصف بالتناقض والتعارض.

هذه المقدمات لا بد للمرسل أن ينتقيها بشكل دقيق لتناسب المقام ونوعية المتلقي، وتأويلها التأويل الذي يرتضيه، واختيار الصفات الموضحة لوجهة نظره وموقفه. ومن الضرورة بمكان الالتجاء إلى استخدام أشياء مادية من أجل قوة التأثير.

وقد أجملت هذه النظرية هذه المقدمات في ست مقدمات التي يكون منها نقطة الانطلاق Propositions de depart :

- الوقائع Les faits وهي المقدمات المشتركة بين المجموعة اللسانية، أو بين جميع الناس، والتي لا تقبل الشك.

- الحقائق وهي القدرة على الربط بين الوقائع وفق نظريات علمية أو مفاهيم فلسفية أودينية.

- الافتراضات Les presomptions وهي مقدمات مشتركة أيضا بين الناس، ولكن الإذعان لها والتسليم بها لا يتم إلا بدخول عناصر تقويها إذ تحدد بالقياس إلى العادي أوالمحتمل.

- القيم Les valeurs وهي مهمة في المجالات غير العلمية كالقانون والسياسة .. وتجعل المتلقي يذعن.

- الهرميات Les hierarchies وتتمثل في هرمية القيم وترتيبها، وذلك أهم من القيم نفسها.

- المعاني أو المواضع Les lieux هي عبارة عن مخازن للحجج، وهي أنواع؛ منها مواضع الكم حيث تحدد الأفضلية بمقياس الكم، ومنها مواضع الكيف حيث تحدد الأفضلية بالجودة، ومنها أيضا مواضع الترتيب كاعتبار السابق أفضل من اللاحق، ومواضع الموجود كأفضلية الموجود والراهن على المحتمل والممكن ...

وقد كان المقام معلما بارزا أيضا من معالم نظرية الحجاج في اللغة لأوزفالد ديكرو Oswald Ducrot وجون كلود أوسكمبر J C Anscombr. لقد عرف رواد هذه النظرية بمجاوزة بعض المفاهيم التي كانت سائدة في الدراسات اللغوية، خاصة اهتمامهم بالمقام مقابل اهتمام الدراسات السابقة بالنظام اللغوي مثلا. وقد تجلى المقام عندهم بصفة خاصة عند وقوفهم عند سمات الحجة اللغوية حيث يذهبون إلى أن من أهم هذه السمات (المقامية) (37)، وحيث إن المقام هو الذي يمنحها قيمتها الحجاجية. فإن كان اهتمامهم بالأساس على المواد اللغوية في صناعة الحجاج وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب، فهم لا يغفلون أهمية مراعاة المقام ليحقق الحجاج أثره في المتلقي.

إذا كان الحجاج مبحث تداولي بامتياز، وإذا كان موضوع التداولية " استعمال الجملة في المقام"، فإن الحجاج هو أيضا استعمال الجملة في المقام، ومن

ثم لا يمكن لنا أن نتصور مبحثا حجاجيا من غير اعتماد على عنصر المقام فهو خزانه.

ومن جهة حجاجية نجد أن مراعاة المقام تشحن الخطاب بطاقة حجاجية إضافية يحقق من خلال ذلك التأثير والإقناع أو تغيير سلوك أو موقف. فالمتلقي هو هدف الخطاب وهو الذي يقرر اختيارات المتكلم الحجاجية وطرائقه في الإقناع. وعليه فدراسة المقام واهتمامنا به هو اهتمام بالمتلقي الذي يعد هدف الخطاب.

وهو الأمر الذي أكده القدامى فالعناية بأحوال المتلقين شرط ضروري في التخاطب، ومن ذلك قول ابن رشيق: " والفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها وينظر في أحوال المخاطبين فيقصد محابهم ويميل شهواتهم وإن خالفت شهوته ويتفقد ما يكرهون سماعه فيتجنب ذكره "(38).

فالنص الحجاجي يقتضي اختيارات دقيقة تلائم مقام القول وحال المتلقي، ويستجيب لطموحاته وآماله، اختيارات حجاجية تمثلها وسائل الاستمالة والتأثير التي تحقق الهدف. ولأمر ما كان اختيار (التعابير الجاهزة) في الخطاب عنصرا حجاجيا فعالا لأننا نعتمد تعابير يفهمها ويعرفها المتلقي وتدخل في تشكيل ثقافته وشخصيته فيسهل ذلك عملية الاتصال والتأثير والإقناع. وهو من أهم ما يصنع حجاجية الخطاب عموما .

وما ينبغي أن نشير إليه في هذا المقام اشتراك كل من المتكلم والمتلقي في الخطاب المنجز، لأن حضور المتلقي في ذهن المتكلم أمر حتمي في الخطاب الحجاجي لاختيار الآليات الحجاجية المناسبة له. كما أن شخصية المتكلم في حد ذاتها، وحقيقة ما تتصف به من خصال كريمة وقيم خلقية عالية تبني الثقة بينهما، وفي ذلك دعم للطاقة الحجاجية في الخطاب. وهذا ما أكده أرسطو قديما بتعليله

تأكيده على حجاجية شخصية المتكلم في قوله " لإن شرفاء الناس يوحون لنا بأعظم ثقة وأسرعها في جميع المسائل بوجه عام، كما يلهموننا بثقة كاملة في جميع القضايا التي لا تحتوي على يقين ما، وتترك محلا للشك؛ إلا أن هذه الثقة ينبغي أن تكون نتيجة لتأثير الخطاب لا نتيجة استمالة طباع الخطيب وسمته فقط. وإذن ينبغي ألا نقبل، كما يفعل بعض المؤلفين في تقنية الخطاب، القضية القائلة بأن صدق الخطيب لا يسهم في الإقناع، لأن الطباع أوالسمت، إذا جاز هذا التعبير، هو الذي يكاد يشكل الجزء الأنجع في الأدلة" (39).

وهذا الأمر نلمسه بطريقة مباشرة في الخطاب الشعري القديم بحضور غرض الفخر مع مختلف الأغراض الأخرى، فلا نكاد نجد الشاعر إلا مفتخرا بذاته ومناقبها وصفاتها وخصالها، فيضع الشاعر المتلقي في مقام أن من كان هذا هو حاله فلا يتوقع منه الكذب والمكر والدهاء. فيشحن الخطاب بطاقة حجاجية إضافية تترك أثرها في المتلقي.

وهذا حال الخطباء والمصلحين، وكذا حال الأنبياء والمرسلين. لا شك أن منزلة صاحب النص تشحن النص بطاقة حجاجية متفردة فكيف إذا كان الخطاب ذا طبيعة قدسية كما الخطاب القرآني والخطاب الحديثي.

وفي سياق ما تم بيانه نخلص إلى القول إن مضمون حديث العلماء العرب حول المقام يقع معظمه في جوهر ما تحدث عنه الدرس التداولي الحديث عدا مسألة المعيارية أو مسألة الثبات التي أشار إليها تمام حسان. وبذلك يمكن اعتبار العرب روادا في الاعتداد بالمقام في الخطاب خاصة منذ صحيفة بشر بن المعتمر. فحتى النهضة اللسانية الحديثة لم تولي المقام تلك الأهمية التي هي له حتى ظهرت التداولية وانتشر صيتها.

إن ما جاء به الدرس التداولي حول مركزية فكرة (المقام)، وما أكده الحجاج أيضا. جاء ليغطي معظم المساحة التي كان يغطيها الدرس البلاغي العربي تحت فكرة (مقتضى الحال) أو (المقام). وإن هذا الاهتمام من الدرسين ليبرهن على درجة العلاقة القوية بينهما في الاهتمام بلغة التخاطب الإنساني.

إن للمقام أهمية كبيرة في الصناعة الحجاجية، وأنه الخزان الذي يعتمد عليه في الفهم أو الإفهام، في الاقتناع أو الإقناع. فهو الخزان الحجاجي للحجج. فإحداث الإقناع والتأثير – وهما هدفا الحجاج - لا يتم للمتكلم إلا بالاعتماد على المخزون الحجاجي (المقام)، وذاك يجعل المتكلم يراعي شرطا جوهريا للخطاب، وهو (توفية مقامات الكلام حقها). وموضوع المقام والحجاج هو في جوهرهما انشغال بالمتلقي باعتباره هدف الخطاب ومحدد ملامحه وطرائقه الحجاجية.

الهوامش :

1- يرى تمام حسان أن مصطلح "مقتضى الحال" هو جزء من المقام وليس كل المقام وأطلق عليه اسم "غايات الأداء". تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء (المغرب)، 1994 ص 370. ويرى جميل عبد المجيد أن مفهوم الحال عند بلاغيينا القدامى مفهوما ضيقا لانصرافها لمكون واحد من مكونات عملية الاتصال وهو (المخَاطَب)، وينظر كتابه: البلاغة والاتصال، دار غريب، القاهرة، 2000م ص 27.

2 - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 372.

3 - فان دايك، النص والسياق، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، (د ت)، ص257.

4 - أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون،بيروت، ط 1، 2001م، ص397-398.

5 - الجاحظ، البيان والتبيين، دار إحياء التراث، بيروت-لبنان،1968م، ج 1، ص135 .

6 - ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان،1982م، ص 96.

7- نفسه، ص 97.

8- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين،الكتابة والشعر، تح:علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1،1952م،ص 135.

9- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان،ط5، 1981م، ج1، ص22.

10- وينظر جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص 53.

11- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 351.

12- ينظر؛محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، أفريقيا الشرق،2002. ص 35

13- السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط2، 1987 م، ص97.

14- القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: مجموعة من علماء الأزهر، القاهرة، دت. ص84.

15- نفسه، ص432.

16- إحسان عباس، اختيارات من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني،مؤسسة الرسالة، ط2، 1986، ج5، ص 207

17- ابن طباطبا، عيار الشعر، تح:عباس عبد الستار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1402هـ-1982م، ص12.

18- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 342.

19- ينظر؛ إحسان عباس: اختيارات من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ج2، ص88-90. وذكر صاحب الأغاني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قال الحطيئة ما قاله في الزبرقان بن بدر، أمر به فرمي في بئر ثم ألقى عليه شيئا.

20 - وينظر؛ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 340.

21 - السيوطي،التحبير في علم التفسير، تحقيق الدكتور فتحي عبد القادر فريد، الرياض، دار العلوم، ط1، 1402هـ، ص38.

22 - ابن تيمية، مقدمة في التفسير (ضمن مجموع الفتاوى)، جمعه ورتبه ابن قاسم النجدي وابنه محمد، الرياض، 1398هـ. 13/ 339.

23 - اعتمد المفسرون طريقتين لمعرفة المكي والمدني، طريق السماع، وطريق القياس؛ حيث وضعت ضوابط تنصب على الأسلوب والمضمون. ينظر؛ مناع القطان،مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط7، 1400هـ، ص 63-64.

24 - نفسه، ص 348.

25 - الآمدي (سيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي بن محمد)، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، 1983م، ج1، ص19.

26 - ابن القيم، أعلام الموقعين، ضبطه؛ محمد عبد السلام إبراهيم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م،ج1، ص167.

27 - وينظر؛ محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 29 إلى ص67.

28 - شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، من كتاب"أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس، دت ص 351.

29 - د صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، صفر 1413هـ – أغسطس 1992م، ص 26. ونعني بالمقام ما يقابله في التداولية باللغة الفرنسية ((contexte ويسميه البعض(السياق) ويرى تمام حسان أن المقابل في التراث اللغوي العربي هو (المقام). على ما بينهما من فوارق بحكم سياق المنشأ. ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 337.

30 - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 337.

31 - أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، 2008، ص 15.

32 - ينظر؛ محمد العمري، كتابه: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص24-27. وكتابه،البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها ،أفريقيا الشرق،المغرب،1999م، ص 272.

33 - د صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 26.

34 - ينظر؛ د محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 21.

35 - ينظر، عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية،دار الفارابي، بيروت,لبنان، ط2، 2007، ص300

36 – ينظر؛ عبد الله صولة: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، ص 308 - 314. ويتكرر في كتابات بلاغيينا ولغويينا الإشارة إلى أهمية هذه المقدمات، من ذلك ما ذكره حازم القرطاجني بقوله: "وكانت علقة جل أغراض الناس وآرائهم بالأشياء التي اشترك الخاصة والجمهور في اعتقادهم أنها خير أو شر". حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981م، ص 19.

37 - أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء-المغرب، ط 1 ،1426هـ - 2006م، ص 19- 20.

38 - ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت،لبنان،ط5، 1981م، ج1، ص223.

39 - أرسطو، الخطابة، ص 15-16.